

الخطاب التربوي في الجزائر بين الواقع والمأمول

الأستاذ : كبير الشيخ

قسم اللغة العربية و آدابها - المركز الجامعي بعين تموشنت .

شهد العالم في العقود الثلاثة الأخيرة تسارع مسيرة التقدم العلمي بشكل غير مسبوق ، وأدى ذلك إلى تطوير أنظمة التعليم حتى تنسجم و تتلاءم مع ما أصاب مناحي الحياة الأخرى من تطور ، فقد حصل التغيير بشكل جوهري في هياكل هذه الأنظمة وإدارتها والقائمين عليها ، وطرق تمويلها و حتى الشهادات التي تمنحها .

لكن و على العكس من ذلك فالنظام التعليمي الجزائري يبدو وكأنه غير معني بالتطورات التي شهدها العالم ، فبدلا من العمل على تجاوز مشكلاته المزمنة يستمر في تخريج أفواج متلاحقة في إشارة المتعلمين بسبب إفلاس خطابه التربوي ، وفقر محتوى برامج التكوين التعليمي و قصوره عن الإجابة عن الحاجات المعرفية و العلمية .

لقد أصبح الهدف الأعلى للنظام التعليمي في القرن الواحد العشرين هو غرس و تنمية الطاقات المبدعة في كل فرد ، وفي الوقت ذاته المساهمة في تدعيم تماسك المجتمع في زمن يزداد عولمة يوما بعد يوم . ذلك مهمة مستقبلية مرهونة بطبيعة الخطاب التربوي للنظام التربوي وتوعية الرسائل التي تصدر عن هذا الخطاب .

يعتبر الخطاب التربوي شرطا لا بد منه لضمان الاتصال البيداغوجي بين المعلم والمتعلم داخل المؤسسة التعليمية ، ولأن هذه المؤسسة تقدم التربية

المقصودة و إنما تعمل دائما على تضمين جملة الأهداف التي تسعى إلى بلوغها في مقرراتها ويحرص على أن يلتزم المدرسون بها.

إذا رجعنا إلى الخطاب التربوي في المقررات الدراسية للنظام الجزائري ، فإنه على حد قول "منصوري عبد الحق" (1) غالبا ما يقدم للمتعلمين صورا مشوهة عن الظواهر الاجتماعية والفيزيائية والطبيعية ، ويعتقد المدرسون أنهم غير ملزمين بانتهاج طريق الصدق والموضوعية في عرض الحقائق على المتعلمين.

ولعل ما يفسر ولو جزئيا غياب عنصر الدافعية في إقبال المتعلمين على دروسهم هو أن القضايا التي يتمركز حول اهتمام معلمهم لا علاقة لها بما يجري في حياة الناس الواقعية ، وان نشاطهم غالبا ما يركز على المظاهر والشكليات و معالجة المسائل الثانوية و بصورة سطحية ، كما ان الكثير منهم يتعامل مع المتعلم بما يعتقد انه سوف يفيد في مستقبله ، فان المتعلمين قد لا يشاركونهم هذه القناعة لذا يجب ربط المتعلم بواقعه ومن هنا فان الخطاب التربوي السائد في المؤسسات التعليمية بالجزائر ما يزال غير فاعل في تشكيل سلوك المتعلمين وتنمية قيمهم بالشكل المرغوب اجتماعيا، وذلك لأسباب عدة منها : (2)

*إن الخطاب التربوي يستند إلى التلقين ، ولم يسهم في تنمية نسق قيم عند المتعلمين يتناسب مع الأهداف التعليمية و التربوية .

*لأن الخطاب التربوي تلقينيا وخاليا من الإبداع ، ولأنه يعاني من غياب الارتباط والانسجام بين النظري والتطبيقي ، فمن الطبيعي أن لا يؤدي الى تنمية مهارات المتعلمين على المستويين المعرفي والعلمي .

*أن الخطاب التربوي المغربي في التلقين أثبت الواقع عجزه عن تنمية أساليب التفكير من قبيل التحليل والاستنتاج والنقد .

*لم ينجح الخطاب التربوي بعد في تشكيل اتجاهات عند المتعلمين تنطوي على العقلانية و المنطق.

*وبالنظر إلى التطور المعرفي الكبير والمتسارع جراء ثورة المعلوماتية فإن الاعتماد على الكتاب المقرر فقط لم يعد يف بالحاجة ، لأن المعلومات التي يراد توصيلها للمتعلم يكون قد مضى عليه زمن وربما طورت أو استعوض عنها بمعلومات أخرى.

* عدم قدرة النظام التعليمي على تطوير خطابه التربوي بسبب ضعف الإنتاج العلمي بدليل عجزه عن تنمية النسق القيم للمتعلمين بالشكل المرغوب اجتماعيا ، ولعل أحسن ما يفسر هذا العجز هو انعكاساته السلبية على المتعلمين والتي يمكن إيجازها فيما يلي (3):

أ - الإحساس بالاغتراب عن المجتمع ففي الوقت الذي يلح فيه الخطاب التربوي على أهمية اكتساب العلم والمعرفة وضرورة النجاح في الدراسة لضمان المستقبل ، تؤكد شواهد الواقع أن قضاء سنوات طوال على مقاعد الدراسة بل وحتى التفوق الدراسي قد لا يحقق لصاحبه المكانة الاجتماعية التي يحلم بها بدليل أن جيوشا من خريجي الجامعات هم اليوم عاطلين عن العمل .

ب - تنمية الإحساس بالقهر الذي يشيع بين أفراد المجتمع نتيجة الظلم والاستبداد المسلط عليهم ، و بسبب هيمنة القوة والنفوذ في

العلاقات بينهم ، لذا يسعى الخطاب التربوي في الكثير من جوانبه إلى تزييف الوعي و ترويض المتعلمين لتقبل الوضع القائم وكأنه قدر محتوم.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح : هل يمتلك المعلمون في المؤسسات التعليمية الجزائرية من الإمكانيات ما يؤهلهم لتطبيق ما توصلت إليه الأبحاث المعاصرة في مجال بيداغوجية التعليم؟ وهل يدركون أهمية الحوار و تفعيل الاتصال بين المعلم و المتعلم لتحقيق الأهداف المرجوة من العملية التربوية؟

يقول - عبد الرزاق أمقران - في بحث له "عنف الأستاذ الجامعي - تحليل وضعيات بيداغوجية معينة -" نحن الأساتذة نجهل أنفسنا بالقدر الذي نجهل فيه الطرف الآخر الذي نتعامل معه يوميا أي الطالب، لأننا لم نكون لمهنة التدريس، والكثير منا التحق بهذه المهنة ليس حبا فيها بل لأنه اتبع مسارا تدريجيا إلى الجامعة ، لذلك فنحن نمارس التدريس بدون مرجعية تربوية و نفسانية ، ولا نبذل الجهد الضروري للتكوين الشخصي (4) .

و الخطاب التربوي يحيلنا حتما إلى خطابات أخرى لها علاقة وطيدة بالعملية التعليمية خاصة الوسائل الديداكتيكية التي تجعل علاقة الأستاذ بالمتعلم علاقة ودية إنسانية قوامها الحوار والمشاركة لا العنف والإقصاء من رموز وعلامات وحركة الجسد وهيئة الوجه ، التي تساعد المتعلم في الانخراط الايجابي في بناء تعلماته الذاتية وتقويمه،

بالتعبير عن آرائه دونما خجل أو حرج أو نقص ، بحيث يصبح الأستاذ إذ ذاك موجهاً ومنشطاً ومستدرجاً وموزعاً للأدوار داخل القسم، ضامناً لتكافؤ الفرص بين جميع المتعلمين، ومراعياً لظروفهم النفسية والاجتماعية ، ومساعداً إياهم على تجاوز صعوبات التعلم هذا هو التواصل الناجح الذي يفتح على ظروف المتعلم الوجدانية وتطلعاته ، ويضع تمثلاته في الحسبان كنقطة انطلاق لبناء المعرفة . وإذا كان الخطاب التربوي هو المادة الخطابية التي تشكلها الملفوظات التي تم إنتاجها من قبل الأستاذ في نشاط من نمط خاص، وفي إطار مؤسسة معطاة (كالجامعة مثلاً) فهذا الخطاب يمتاز بوجود علاقة بين ثلاثة فواعل (الأستاذ ، الطالب ، المادة التعليمية) وحتماً أن هذا الخطاب يستند إلى الخطاب العلمي بأنه شرطاً لا بد منه لضمان الاتصال البيداغوجي بين أعضاء المؤسسة التعليمية وإن كان الخطاب العلمي يمتاز بالشفافية و يكاد ينعدم فيه الغموض كما أنه يمتاز بالموضوعية ، ومن هنا نستخلص أن الجامعة مكان تتحول فيه الملفوظات العلمية إلى ملفوظات تربوية.

وليس خافياً على أحد أن الطريقة التلقينية في التدريس هي أكثر الطرق انتشاراً في المؤسسات التعليمية بالجزائر ، إذ كثير ما يغيب الحوار في قاعة الدرس ويهمل مبدأ النشاط التلقائي في التعلم رغم أهميته البالغة وبدلاً من تجاوز أساليب التلقين التي جعلت من المتعلم ولفترة طويلة مجرد مستهلك لما يعرض عليه أو وعاء فارغ يجب ملؤه، يستمر معظم المدرسين في مختلف المؤسسات في التشبث بهذه الأساليب عوض الشروع

في التحضير الجاد لرجال ونساء الغد ، بإعدادهم في الجوانب الأساسية التي تؤهلهم ليصبحوا أفرادا مستقلين بكفاءاتهم ومهاراتهم، يعرفون كيف يقتحمون المجتمع وكيف يحددون فيه لأنفسهم أدوارا ايجابية ، وبدل من العمل على ربط المتعلم بواقعه اليومي وتطعيمه بالقيم الإنسانية النبيلة ، يستمر الخطاب التربوي في الترويج لمجتمع افتراضي لا أثر له على أرض الواقع⁽⁵⁾.

وحتى يتمكن التعليم وخاصة الجامعي من تلبية احتياجات التنمية الشاملة ، فإنه يواجه الكثير من التحديات، لتخريج نوعية جديدة من المعلمين القادرين على معرفة أنفسهم وفهم الآخرين، وعلى مواجهة متطلبات العصر والمستقبل ، والعيش في (القرية العالمية) دون أن ينفصلوا عن جذورهم ، ودون أن يشعروا بالتمزق بين العولمة والبحث عن الجذور والانتماءات ، وأن يتمكنوا من المساهمة في إقامة عالم يكون العيش فيه أيسر وأكثر عدالة ، لهذا فان الأنظمة التعليمية مدعوة لتنمية الشخصية المتكاملة لجميع الأفراد دون استثناء وإكسابهم المهارات التي تمكنهم من تحقيق تعلمهم الذاتي مدى الحياة ولا يتأتى ذلك إلا من خلال بناء مناهج حديثة تتماشى وعصر العولمة والانفجار التكنولوجي المعرفي المتسارع.

ومن هنا يحتل المنهج التربوي موقعا استراتيجيا حساسا في العملية التعليمية عندما ينظر إلى التخطيط التربوي من منظور الجودة والنوعية، ويعد من الموضوعات المهمة التي شغلت بال و اهتمام الدارسين قديما وحديثا و نالت القسط الوافر من دراسته ، إذ التربية ليست بعملية خلق معدومة عند الإنسان، ولكنها صقل وتطوير وتغذيب لما هو موجود عنده من استعدادات وقدرات . وقد غدت اليوم قضية الإصلاح

التربوي إحدى القضايا المطروحة على كافة الصعد: العالمية، الإقليمية و المحلية وهي ليست جديدة على مفكري العربية ، فقد كان الإصلاح هاجسا ملحا لدى النخب السياسية والثقافية منذ مطلع عصر النهضة في القرن التاسع عشر وإن تعددت منظوراته، وتباينت الوسائل المطروحة لتحقيقه. غير أن ما شهدته العالم في الحقبة الأخيرة في ما صار يعرف بـ: العولمة ، خير دليل على ما شهدته العصر من تدفق هائل للمدارس الغربية والعربية التي أخذت على عاتقها الإصلاح التربوي وطرق وسائله.

وبالرجوع إلى تراثنا العربي نقف وقفة استحضار لشخصية عربية احتلت مكانة متميزة في تراثنا العربي والإسلامي ، وحتى في الفكر الغربي المعاصر، ألا وهي شخصية العلامة-عبد الرحمان ابن خلدون- التي ينظر إليها على أنها شخصية صاحبة مشروع ورؤية حضارية خاصة ، ولا سيما عبقريتها في الفكر التربوي. والباحثون من اللسانيين المعاصرين في مقدمته يجدون مخزونا من الاستطرادات الثرية التي تدل على جملة من الأفكار اللسانية التربوية التي لا تقل أهمية عما توصل إليه البحث اللساني، و اللسان التطبيقي عند الغربيين⁽⁶⁾. حيث لم يغفل ابن خلدون عن تقديم شتى الأفكار التربوية لرجال التربية و التعليم في عصره ، و هي جديرة بالأخذ في عصرنا لأنها لا تقل أهمية عما يذهب إليه علم اللسان التربوي الحديث في عصرنا.

فإذا ما عدنا إلى مقدمة العلامة -ابن خلدون- نستشف من خلالها معالم منهجه التربوي في الطريقة الناجعة التي رسمها في تعليم الناشئة وفي تحديده للآداب و الشروط الواجب توفرها في المعلم والمتعلم فقد أكد صراحة أن عملية التعلم و التعليم طبيعية في العمران البشري ، فالإنسان متميز عن سائر

خلق الله بالفكر الذي يهتدي به ، فهو تَوَاق إلى تحصيل ما ليس عنده من الادراكات ، فينشأ عن ذلك موقف تعليمي وتقوم عملية التعلم عادة على ثلاث أعمدة: المعلم، المتعلم، الطريقة وتتحقق الأهداف التربوية والتعليمية بمقدار ما يتوفر لهذا الموقف التعليمي من شروط (7) ، ذلك أن التعلم عموما هو اكتساب العلوم واجتلابها إلى القلب (8) .

وفي ضوء هذا أورد ابن خلدون في أثناء تحديده للمنهج التربوي السليم شروط دينية ودنيوية ، ينبغي على المعلم و المتعلم التحلي بها حتى تكون عملية التعليم ناجحة ، ومثمرة ، فمن البديهي أن الإنسان لا يتعلم أي خبرة أو مهارة فكرية إلا إذا كان حاصلا على الشروط اللازمة للقيام بمثل هذه العملية، وتنحصر هذه الشروط في هذه المبادئ :

*أولا: شروط المعلم :

*الإحاطة بمبادئ التعليم وعدم الشدة على المتعلمين ، لأن المعلم يعدّ العنصر الأساس في العملية التربوية ، فهو المتصرف في قلوب البشر ، وهو أيضا بمثابة الطبيب المعالج للنفس من مرضها وجهلها بالعلوم، بل أن مهمته أخطر فيما يرى -أبو حامد الغزالي-: "من مهمة الطبيب ، لأن المعلم متصرف في العقول و القلوب في حين الطبيب متصرف في الأبدان".

*الإيجاز المفيد في تقديم المسائل العلمية و حسن الانتقاء ، حيث دعا ابن خلدون المربين إلى عدم الاستكثار من العلوم الآلية التي لا ينبغي أن توسع فيها الأنظار ولا توسع فيها المسائل ، وهذا ما أكدته اللسانيات التربوية الحديثة.

*المتابعة والاستمرار في إعطاء العلم، والتحذير من انقطاع الدروس
والفريق فيما بينها لأن ذلك يؤدي إلى النسيان.

*مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ، لأن العوامل النفسية والجسمية
والبيئية تؤدي دورا أساسيا في تحديد حجم التعلم ، بحيث يتفاوت ذلك الحجم
بين فرد وآخر. فالأفراد يختلفون في درجة الذكاء وفي قدرة الاستيعاب .

*ثانيا : شروط المتعلم :

* الإصغاء : إن المتعلم مطالب في بداية تعليمه إلى الإصغاء لمعلمه ،
واستيعاب العلوم المختلفة عنه قبل أن يتطرق إلى الاختلافات من المذاهب ،
ذلك أن السمع أو الإنصات هو أبو الملكات اللسانية ، فالشيء الذي يعين
المتعلم على فتح لسانه بالمحاوره والكلام والمناظرة هو الانغماس الكلي في وسط
لغوي عفوي. وقد أكد علم اللسان التربوي الحديث على ضرورة الاهتمام
بملكة السمع باعتبارها الحاسة الأولى المساهمة في عملية التعلم وعليه يكون :

أ - الاهتمام بالمنطوق والمسموع قبل المقروء والمكتوب ، ومن ثمة العمل
على تنمية اللغة الشفهية.

ب - تقديم اللغة المراد تعليمها في شكل حوار يسجل على أشرطة
مغنطيسية تتحول بعد ذلك إلى مخابر اللغات.

ج - الاعتماد على التكرار الشفهي المكثف من أجل ترسيخ الجمل
المثالية.

د - الكشف من المحاكاة والحفظ ثم استعمال التمارين البنيوية.

*** الاستعداد :** على المتعلم الاستعداد للتعلم والتفرغ للعلم والابتعاد عن إغراءات الدنيا ، وإقامة علاقة عاطفية بين المعلم والمتعلم ، والتشوق للمادة المراد تعلمها ، وحتما هذا حسب نفسية المتعلم واستعداداته العقلية.

*** مرافقة وملازمة رجال العلم والرحلة في طلبه ،** لأن ترسيخ ملكة العلم يكون بملازمة رجاله ، وخاصة أن طرائق شيوخ العلم متعددة فلكل طريقته الخاصة في تلقين العلوم ، وعلى المتعلم الذي يريد الاستزادة من العلم و تقوية ملكته ملازمة الشيوخ ، والرحلة إن اقتضى الأمر للقاء بهم (9).

ومن جهة أخرى ونحن نسعى إلى تحقيق جودة التدريس - وخاصة الجامعي - بوصفه منظومة متكاملة تهدف إلى بناء شخصية الطالب الجامعي وتنميتها في الجوانب المعرفية والقيمية والسلوكية، لابد من التنبيه إلى ضرورة تحسين وتطوير لغة الخطاب سواء العلمي، أو المعرفي ، أو التربوي و حتى التواصل ، لأن اللغة أداة للتواصل بين الأستاذ وطلابه، ليس على الصعيد الأكاديمي فحسب، بل على مستوى التداول اليومي للغة في المحيط الجامعي . وما نقصده بلغة الخطاب ، اللغة التي يستخدمها الأستاذ الجامعي في إيصال المعرفة العلمية إلى طلبته في القاعة الدراسية : عرضا ، أو توضيحا ، أو مناقشة ، أو أثناء إجراء التجارب في المختبرات أو في العمل الميداني ، وبمعنى آخر أن الأستاذ الجامعي يستخدم نوعين من الخطاب : الخطاب المعرفي والخطاب التواصل.

ولا شك أن لغة الخطاب لا تعني المفردات و التراكيب اللغوية فحسب ، بل تعني أيضا ما تحمله تلك المفردات من مضامين معرفية وفكرية لبيان الحجة وإقامة الدليل. واللغة العربية بوصفها لغة التدريس في عموم التخصصات اللسانية تعاني من ازدواجية الاستخدام بين الخطابين الشفهي والكتابي، ففي الوقت الذي يتقيد فيه الأستاذ بضوابط اللغة العربية في الخطاب المكتوب وبنسب متفاوتة في الجودة، نجده في الخطاب الشفهي أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى، لذا فمن واجب أساتذة الجامعة وفي مختلف التخصصات أن يرتقوا بهذه اللغة في خطابهم المعرفي وفي تواصلهم مع طلبتهم من أجل أن لا تكون الفصحى لغة الأدب والشعر فحسب ، والاهتمام بها حبيس أقسام اللغة العربية في الجامعة.

الإحالات :

- (1) منصورى عبد الحق ، أخطاء تربوية-ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-ص67-2000.
- (2) محمود شمال حسن ، الخطاب التربوي العربي و إشكالية تكوين السلوك- مجلة الشؤون العربية- العدد 115-ص106-2003.
- (3) محمود شمال حسن ، الخطاب التربوي العربي و إشكالية تكوين السلوك- مجلة الشؤون العربية- العدد 122-ص106-2003.
- (4) عبد الرزاق أمقران -دراسات في علم الاجتماع- دار بهاء الدين للنشر والتوزيع-ص65-2000.
- (5) محمد بوقشور-مجلة العلوم الاجتماعية-العدد8-ماي2009.
- (6) عبد السلام المسدي-التفكير اللساني في الحضارة العربية-الدار التونسية للكتاب-ط2-ص208-1986.
- (7) عبد الأمير شمس الدين-الفكر التربوي عند ابن خلدون و ابن الأزرقي- دار اقرأ-ص79-بيروت 1984.
- (8) أبو حامد الغزالي -الإحياء في علوم الدين- طبعة عيسى الحلبي- ص21-القاهرة 1957.
- (9) فاتح زيوان-ديوان الدراسات الخكمة-المنهج التربوي عند ابن خلدون- جامعة تبسة.